

التعبير، وبينهما بعض الميزات الخاصة بكلّ فصلنا التي لـ «طه» فيها، وهنا قول فصل حول آيته ما يخصها.

﴿وَوَعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْمٍ مِيقَتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلِفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (١٤٢):

هنا عديد المواعدة المذكور دون «طه»: ﴿وَوَعَدْنَاكَ جَانِبَ الطُّورِ﴾ (١) ولكنها في البقرة: ﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ أَخَذْنَا مِنَ الْعِجَلِ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ (٢).

فـ ﴿أَرْبَعِينَ﴾ هناك هي مجموع المواعدين المتصلتين، و﴿ثَلَاثِينَ﴾ هنا هي ظاهرة أولى للمواعدة دون حصر حيث «وأتمناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة» (٣) فـ ﴿ثَلَاثِينَ﴾ هي في صيغة التعبير كانت امتحاناً لبني إسرائيل دون أن يعلموا ﴿وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ﴾ ابتلاء بهذه المتممة هل هم بعد على انحرافهم الشركي أم أصلحوا أنفسهم فلا يضلون، ولكنهم ضلوا إلا قليلاً بفتنتي مزيد العشر على الثلاثين (٤) وعجل السامري: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ (٥).

(١) سورة طه، الآية: ٨٠.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٥١.

(٣) نور الثقلين ٢: ٦١ عن أبي جعفر الباقر عليه السلام أن موسى قال لقومه: إني أتأخر عنكم ثلاثين يوماً ليتسهل عليكم ثم زاد عليهم عشراً وليس في ذلك خلف لأنه إذا تأخر عنهم أربعين ليلة فقد تأخر ثلاثين قبلها، وفيه عن الفضل بن يسار عن أبي جعفر عليه السلام قال: قلت: لهذا الأمر وقت؟ فقال: كذب الوقاتون كذب الوقاتون كذب الوقاتون أن موسى عليه السلام لما خرج وافداً إلى ربه واعددهم ثلاثين يوماً فلما زاده الله على الثلاثين عشراً قال قومه: قد أخلفنا موسى فصنعوا ما صنعوا فإذا حدثناكم الحديث فجاء على ما حدثناكم به فقولوا: صدق الله، وإذا حدثناكم الحديث فجاء على خلاف ما حدثناكم به فقولوا: صدق الله تؤجروا مرتين.

وفي تفسير العياشي عن الفضيل بن يسار عن أبي جعفر عليه السلام قال: إن موسى عليه السلام لما خرج وافداً إلى ربه واعددهم ثلاثين يوماً فلما زاداً له على الثلاثين عشراً قال قومه: أخلفنا موسى فصنعوا ما صنعوا.

(٤) المصدر السابق.

(٥) سورة طه، الآية: ٨٥.

وترى لا يستدل بظاهر العدد - إذاً - على ألا يعني أزيد منه كما لا يُعنى الأنقص؟ إن الأنقص هو خلاف النص، والأزيد قد يكون خلاف النص كما إذا كان العدد في مسرح الحصر فهو - إذاً - مسرح الحصر، كأن تسأل ما عندك من الدراهم؟ فتقول: عندي عشرة، فإنها - إذاً - نص في العدد ينفي الأزيد كما ينفي الأنقص، وأخرى ليس خلاف النص، بل هو لأكثر تقدير ظاهر يقبل التحويل كأن تقول دون سؤال: عندي عشرة، فليس ينافيها أكثر منها حيث الأقل هو تحت الأكثر، وهكذا يعني قول الله: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَا بِعَشْرِ﴾ فقد قال لهم موسى واعدني ربي ثلاثين ليلة، قبل أن تلحقها المواعدة الثانية، ومهما كانت الأولى ظاهرة في حصرها ولكن ليست بحيث يستدل بها على سلب مواعدة ثانية حتى إذا جاءت يقال: إن الأولى كاذبة، فقد تكون الأولى - كما هنا - لمصلحة تقتضيها، فلا يحتج بها على سلب الأخرى، مهما لا يحتج أيضاً على إيجابها، فلنسكت عما وراء العدد إيجاباً وسلباً، مهما يلمح بالسلب لما وراءه.

وهنا ﴿ثَلَاثِينَ لَيْلَةً﴾ دورها دور السكوت عما وراءها، فإذا تأخر موسى الرسول كان ذلك دليلاً على وعد آخر يتلوها قبل أن يخبرهم موسى، ولا فرق - إذاً - بين ﴿وَأَتَمَمْنَا بِعَشْرِ﴾ بعد ﴿ثَلَاثِينَ لَيْلَةً﴾ دون فصل بطرح الوحي، وبين ذلك الإتمام المستفاد من واقع التأخير لقوم موسى، والوحي الثاني بحمله لموسى نفسه.

ذلك، وحتى إذا كان العدد نصاً في الحصر ثم لحقته زيادة بنص آخر لا يكذب هذا الآخر فإن للنسخ مجالاً واسعاً حين نتأكد من النص الثاني، فضلاً عما هنا حيث العدد ليس نصاً في الحصر ولا ظاهراً بيناً، وإنما له لمحة الظهور.

وكضابطة في الأعداد وسائر القيود هي بين حالات ثلاث: ١ - أن تدل

قرائن على الحصر، ٢ - أم على سلبه، ٣ - أم لا دلالة على الحصر إيجابياً ولا سلبياً، وهنا ﴿وَوَعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً﴾ من القبيل الثالث، مهما كان ظاهراً طهوراً ما في الحصر، احتمالاً راجحاً لحصر المواعدة في ﴿ثَلَاثِينَ﴾ ولكنه ليس حجة على كذب موسى بما ﴿وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ﴾ أم كذب الله وعوداً بالله، حيث الأدلة القاطعة على كمال الصدق وتمامه في قول الله وقول رسول الله، المبرهن على رسالته بآيات من الله، هذه الأدلة تجعل ذلك الاحتمال احتمالاً وفي بوتقة النسيان، بل وحتى إذا ناقضت المواعدة الثانية الأولى فوجه النسخ موجه لا يدع مجالاً لفرية الكذب في الساحة الربانية والرسالية.

ذلك، فالقول: إن إثبات الشيء لا ينفي ما عداه لا يصح إلا عند فقد القرائن على سلب أو إيجاب، فليست ضابطة تحلق على كل إثبات أنه لا ينفي ما عداه، إنما هو الإثبات غير الحاصر حده بعده أو مدّه.

ثم المواعدة الخفية عن قوم موسى هل كانت خفية على موسى نفسه كما هم، ثم أوحيت إليه بعد كمال الثلاثين، أم كان يعرفها عند المواعدة الأولى، دون سماح له أن يخبرهم بها؟ الظاهر أنه ما كان يعلمها كقومه على سواء، وإلا لم تكن مواعدة ثانية، إنما هي مواعدة واحدة هي «أربعون ليلة».

إذاً ف﴿وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ﴾ بمواعدة ثانية بعد الثلاثين أم ضمنه، دون أن تكون أوحيت إليه مع الأولى، اللهم إلا بتأويل أن الله واعدته الأولى أن يخبر بها قومهم، ثم بعدها الثانية دون فصل ألا يخبرهم بها ابتلاء لهم بما أثقلوا ببراهين الحق الحقيقي بالتصديق، وهم مكذبوه، فهي - إذاً - من بلية الشرّ جزاءً وفاقاً، وعدلاً بما أوتوا من تلكم البراهين.

هذا، ولأن المواعدة كانت تشملهم أجمع حسب الجمع في طه:

﴿وَوَاعَدْنَاكَ﴾^(١) و﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَى﴾^(٢) قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَيَّ أَتْرَى وَعَجَلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾^(٣) فقد كانت المواعدة الأصيلة هي ثلاثين ليلة ثم ﴿وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ﴾ إتماماً للعدة المعنوية بذلك العدد المبارك وعشر ذي الحجة .

ذلك وللأربعين عديداً ومعدوداً منزلتها في مختلف الحقول تكويناً وتشريعاً ف «ما أخلص عبد الإيمان بالله أربعين يوماً إلا زهده الله في الدنيا وبصره داءها ودواءها وأثبت الحكمة في قلبه وأنطق بها لسانه . . .» .

وهي هنا كما يروى ثلاثون ذي القعدة - حيث اتفقت هكذا حين المواعدة - وعشر من ذي الحجة، وما يروى سناداً إلى ثلاثين هذه أن ذا القعدة هي ثلاثون يوماً^(٣) هي خلاف الواقع المكرور، كما وأن ﴿ثَلَاثِينَ﴾ في الآية لا تقرر نفس العدد لذي القعدة على مدار الزمن! .

وإنما اختص ذكر «ليلة» دون «نهاراً» أو «أياماً» لـ ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾^(٤) فإن فيه اجتماعاً للحواس عن سائر التفرقات الحيوية المعيشية أكثر من النهار .

ويا للأربعين من موقف مشرف تكويناً وتشريعاً، فمن التكوين أن كل رحلة من رحلات الجنين أربعون يوماً، ثم وفي التشريع قد ابتعث النبي ﷺ في الأربعين من عمره، وهكذا - كما يروى - سائر النبيين ﷺ

(١) سورة طه، الآية: ٨٠ .

(٢) سورة طه، الآيتان: ٨٣، ٨٤ .

(٣) ثلاثون يوماً لقول الله ﷻ : ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً﴾ [الأعراف: ١٤٢] ومثله في الكافي عنه ﷺ .

أقول: أمثال هذه التطرفات هي تذوقات غير مسنودة إلى دليل تُفتري على المعصومين ﷺ! .

(٤) سورة المزمل، الآية: ٦ .

«وليس صاحب هذا الأمر من جاز أربعين» أي في صورة من له أربعون، و«من شرب الخمر لم تحتسب صلاته أربعين يوماً» و«من قرأ الحمد أربعين مرة في الماء ثم يصب على المحموم يشفيه الله» و«إن العبد لفي فسحة من أمره ما بينه وبين أربعين سنة فإذا بلغ أربعين سنة أوحى الله ﷻ إلى ملكيه إني قد عمرت عبدي عمراً فغلظا وشددا وتحفظا واكتبا عليه قليل عمله وكثيره وصغيره وكبيره» و«إذا بلغ العبد ثلاثاً وثلاثين سنة فقد بلغ أشده وإذا بلغ أربعين سنة فقد بلغ منتهاه فإذا طعن في إحدى وأربعين فهو في النقصان وينبغي لصاحب الخمسين أن يكون كمن كان في النزع...» و«أبناء الأربعين زرع قد دنى حصاده» و«إذا بلغ الرجل أربعين سنة ولم يتب مسح إبليس وجهه وقال: بأبي وجه لا يفلح» و«من حفظ من أمتي أربعين حديثاً مما يحتاجون إليه من أمر دينهم بعثه الله يوم القيامة فقيهاً عالماً»^(١) وقد «بكى آدم

(١) أربعون حديثاً يعم القرآن والسنة، بل والقرآن أخرى أن يكون حديثاً: ﴿فِي أَيِّ حَدِيثٍ بَعَدَ اللَّهُ وَءَايَتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ [الباقية: ٦] ثم ولا يعني «حفظ» فقط حفظاً عن ظهر القلب، بل هو كامل الحفظ تعلماً وتخلقاً وتعليماً وتطبيقاً في الأصول الثلاثة وفي الفروع. عشرة في الفروع العشرة، وثلاثين في الأصول الثلاثة، فطالما الحفظ كثير ولكنما الرعاة قليل.

وقد يروى «من بلغ أربعين ولم يتعص فقد عصي» فقد تعني مثلث العصي لهندسة كمال الإنسان وهي عصا الفطرة والعقلية والشرعة، استقامة على هذه العصي ليقوم في دين الله سليماً صالحاً.

ذلك وقد ورد «على أمتي» بديلاً عن «من أمتي» كما في البحار ٢: ١٥٦ ح ٨ وفي العيون ٢: ٣٧ ح ٩٩ عن الرضا عليه السلام وابن زهرة في الأربعين ٣٩ بالطريق الأول من السند رقم ٤٠ ورواه الشهيد الأول في مقدمة أربعين بالإسناد رقم ٦٤ وأخرجه كنز العمال ١٠: ٤٢٥ ح ٢٩١٨٥ - أخرجه ابن الجوزي بلفظه عن علي عليه السلام والدارقطني في العلل عن ابن عباس بلفظ «من حفظ على أمتي أربعين حديثاً من أمر دينها بعثه الله فقيهاً عالماً»، وأخرجه ابن حبان في الضعفاء عنه وابن عدي وابن عساكر من طرق عن أبي هريرة وابن الجوزي أيضاً عن أنس وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة مرفوعاً، وذكر في التخريج عدة من المحدثين المخرجين لهذا الحديث تركناه اختصاراً وكما يناسب موسوعتنا التفسيرية.

ومما يشهد على أن الحفظ لا يعني - فقط - حفظاً عن ظهر الغيب، بل هو الحفظ لأربعين على العامة في أمر الدين فردياً وجمعياً، كنماذج من أصول الدين وفروعه، ما رواه في =

أربعين صباحاً على الجنة» و«أنصب الماء زمن نوح من السماء أربعين

= الخصال بسند عن جعفر بن محمد عن أبيه عن أبيه الحسين بن علي عليه السلام قال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله أوصى إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وكان فيما أوصى به أن قال له يا علي!: من حفظ من أمتي أربعين حديثاً يطلب بذلك وجه الله صلى الله عليه وآله والدار الآخرة حشره الله يوم القيامة مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً. فقال علي عليه السلام: يا رسول الله صلى الله عليه وآله أخبرني ما هذه الأحاديث؟ فقال: أن تؤمن بالله وحده لا شريك له، وتعبده ولا تعبد غيره، وتقيم الصلاة بوضوء سايع في مواقيتها، ولا تؤخرها فإن في تأخيرها من غير علة غضب الله صلى الله عليه وآله، وتؤدي الزكاة، وتصوم شهر رمضان، وتحج البيت إذا كان لك مال وكنت مستطيعاً وأن لا تعق والديك، ولا تأكل مال اليتيم ظلماً، ولا تأكل الربا، ولا تشرب الخمر ولا شيئاً من الأشربة المسكرة، ولا تزني، ولا تلوط، ولا تمشي بالنميمة، ولا تحلف بالله كاذباً، ولا تسرق، ولا تشهد شهادة الزور لأحد قريباً كان أو بعيداً، وأن تقبل الحق ممن جاء به صغيراً كان أو كبيراً، وأن لا تركز إلى ظالم وإن كان حميماً قريباً، وأن لا تعمل بالهوى، ولا تقذف المحصنة، ولا ترائي فإن أيسر الرياء شرك بالله صلى الله عليه وآله، وأن لا تقول لقصير يا قصير، ولا لطويل يا طويل تريد بذلك عيبه، وأن لا تسخر من أحد من خلق الله، وأن تصبر على البلاء والمصيبة، وأن تشكر نعم الله التي أنعم بها عليك، وأن لا تأمن عقاب الله على ذنب تصيبه، وأن لا تقنط من رحمة الله، وأن تتوب إلى الله صلى الله عليه وآله من ذنوبك فإن التائب من ذنوبه كمن لا ذنب له، وأن لا تصر على الذنوب مع الاستغفار فتكون كالمستهزئين بالله وآياته ورسله، وأن تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وأن لا تطلب سخط الخالق برضى المخلوق، وأن لا تؤثر الدنيا على الآخرة، لأن الدنيا فانية والآخرة باقية، وأن لا تبخل على إخوانك بما تقدر عليه، وأن تكون سريرتك كعلانيتك، وأن لا تكون علانيتك وسريرتك قبيحة، فإن فعلت ذلك كنت من المنافقين، وأن لا تكذب ولا تخالط الكذابين، وأن لا تغضب إذا سمعت حقاً، وأن تؤدب نفسك وأهلك وولدك وجيرانك على حسب الطاقة، وأن تعمل بما علمت، ولا تعاملن أحداً من خلق الله صلى الله عليه وآله إلا بالحق، وأن تكون سهلاً للقريب والبعيد، وأن لا تكون جباراً عنيداً، وأن تكثر من التسييح والتهليل والدعاء وذكر الموت وما بعده من القيامة والجنة والنار، وأن تكثر من قراءة القرآن، وتعمل بما فيه، وأن تستغنم البر والكرامة بالمؤمنين والمؤمنات، وأن تنظر إلى كل ما لا ترضى فعله لنفسك فلا تفعله بأحد من المؤمنين، وأن لا تملّ من فعل الخير، ولا تثقل على أحد، وأن لا تمنّ على أحد إذا أنعمت عليه، وأن تكون الدنيا عندك سجنًا حتى يجعل الله لك جنة - فهذه أربعون حديثاً من استقام وحفظها عني من أمتي دخل الجنة برحمة الله، وكان من أفضل الناس وأحبهم إلى الله صلى الله عليه وآله بعد النبيين والصديقين، وحشره الله يوم القيامة مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

صباحاً» «واحتبس الوحي عن رسول الله ﷺ أربعين يوماً» «واعتزل ﷺ عن خديجة أربعين صباحاً لحملها بفاطمة وولادتها إياها» «وتاه قوم موسى في التيه أربعين سنة» «وأملى الله لفرعون ما بين الكلمتين أربعين سنة ثم أخذه الله نكال الآخرة والأولى» وإذا مات المؤمن فحضر جنازته أربعون رجلاً من المؤمنين فقالوا: اللهم إنا لا نعلم منه إلا خيراً وأنت أعلم به منا، قال الله تبارك وتعالى: «قد أجزت شهادتكم وغفرت له ما علمت مما لا تعلمون»^(١).

هنا يقول ﴿مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلَفْنِي فِي قَوْمِي﴾ وهو بطبيعة الحال بأمر الله، وهكذا علي عليه السلام وبأحرى فأين ضرورة الخلافة في ثلاثين يوماً أو أربعين من الخلافة بعد موت خاتم النبيين عليه السلام.

وكما يقول: «واختصني بوصيته واصطفاني بخلافته في أمته فقال ﷺ: - وقد حشده المهاجرون والأنصار وانغضت بهم المحافل - أيها الناس إن علياً مني كهار المؤمنون عن الله نطق الرسول إذ عرفوني أنني لست بأخيه لأبيه وأمه كما كان هارون أخاه لأبيه وأمه، ولا كنت نبياً فأقتضي نبوة، ولكن كان ذلك منه استخلافاً لي كما استخلف موسى هارون صلى الله عليهما حيث يقول: ﴿أَخْلَفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ السَّبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾^(٢).

وهنا نتبين أنه كان في قومه مفسدون يحاولون أن يحولوه عن صالح

= وفي الخصال عنه عليه السلام: «من حفظ من أمي أربعين حديثاً من السنة كنت له شافعياً يوم القيامة» أقول: وأفضل السنة هو القرآن، أصلاً لسائر السنة. وفي صحيفة الرضا عليه السلام عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله ﷺ: «من حفظ على أمي أربعين حديثاً ينتفعون بها بعثه الله تعالى يوم القيامة فقيهاً عالماً» (العوالم ٢ - ٣: ٤٦٥ - ٤٦٨).

(١) هذه كلها مروية عن الرسول ﷺ وعترته عليهم السلام كما في سفينة البحار ١: ٥٠٤ - ٥٠٥.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٤٢.

المجموعة فيوصيه أن يراقب الأوضاع بكل حائطة فلا ينجرّف بجارّف في خلافته .

وهنا لهارون مثلث من زوايا الخلافة المؤقتة - مما تصلح أن تكون نموذجة كاملة عن المستمرة - هي قاعدة الخلافة: ﴿أَخْلَفْنِي فِي قَوْمِي﴾ ثم زاوية إيجابية هي الإصلاح: ﴿وَأَصْلِحْ﴾ ثم سلبية الإفساد: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ وهذان هما العمادان لكلّ داعية ربانية على درجاتهم .

وعلى ﴿قَوْمِي﴾ هنا دون «بني إسرائيل» لكون الشجرة المؤمنة أو جمع منهم كانوا فيهم .

ذلك موقف هارون عليه السلام في حقل ﴿أَخْلَفْنِي فِي قَوْمِي﴾ وأين هو من موقف علي عليه السلام من خلافة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقد قال له: «أنت الخليفة من بعدي»^(١) حيث «في النبوة وفي علي الخلافة»^(٢) و«إن علياً خليفة الله وخليفتي»^(٣) أجل «هو خليفتي من بعدي»^(٤) كما «اثنى عشر خليفة»^(٥) ف «إن لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم من الخلفاء اثنى عشر إماماً عدلاً لا يضرهم من خذلهم»^(٦) و«من نازع علياً الخلافة بعدي فهو كافر»^(٧) و«يا عمر هذا وصيي وخليفتي من تقدّم عليه كذب بنبوتي»^(٨) .

(١) نور الثقلين ٢: ٦٢ عن خطبة الوسيلة يقول فيها بعد ذكر النبي صلى الله عليه وآله وسلم: واختصني . . وقد أوردنا قسماً من متواتر حديث المنزلة في الفرقان ١٦ : ٨١ - ٨٧ على ضوء آية الوزارة فلا نعيد .

(٢) المصدر ٤ : ٩٢ .

(٣) المصدر ٤ : ٢٩٧ .

(٤) المصدر ٤ : ٢٩ ، ٥٥ ، ٦١ - ٦٩ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٩ - ٨٣ ، ١٤٩ ، ١٩٤ ، ٢٧٧ .

(٥) ٢٨٦ ، ٢٨٨ ، ٢٩٦ ، ٣٢٧ ، ٣٣٣ ، ٣٣٧ ، ٣٣٩ ، ٣٤٦ ، ٣٥٠ ، ٣٥٢ ، ٣٨٤ ، ٣٨٥ ، و٥ :

٤٢ و٢٠ : ٣٣٨ - ٣٤٠ ، ٤٥٩ و١٣ : ٦٧ - ٦٨ و١٥ : ٢١٣ - ٢١٨ ، ١٩٧ - ٢١٢ و٢٠ :

٣٣٨ - ٣٤٠ .

(٦) المصدر ١٣ : ١ - ٧٤ .

(٧) المصدر ٨ : ٢١٦ .

(٨) المصدر ٧ : ٣٣١ . (٨) المصدر ٤ : ٨١ .

﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرِنِي وَلَكِنْ نُنظِّرُ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ نَرِنِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ :

هنا ﴿وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ من المتشابهات التي يُخيّل إلى جاهليها أنه كلام كسائر الكلام، أو تكليم كسائر التكليم، كلا إنه كلام مخلوق كسائر الخلق، ولكنه متميز كما الخالق، عن كلام سائر الخلق، وهو يكلم رسله بالوحي كما يعون ويستطيعون و«له قوة الألسن كلها»^(١).

ومن ميزات كلامه تعالى أنه ليس له جهة ثم هو يحتل كيان السامع من كل جهة، فقد أصبح موسى كلّه سمعاً لذلك الكلام، ما لا يمكن لأي متكلم غير الله أن يكلم دون جهة خاصة ويشمل كل جهات المستمع!

(١) الدر المنثور ٣: ١١٥ - أخرج البزار وابن أبي حاتم وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في الأسماء والصفات عن جابر قال قال رسول الله ﷺ: لما كلم الله موسى يوم الطور كلمه بغير الكلام الذي كلمه يوم ناداه فقال له موسى: يا رب أهذا كلامك الذي كلمتني به؟ قال: يا موسى إنما كلمتك بقوة عشرة آلاف لساني ولي قوة الألسن كلها وأقوى من ذلك فلما رجع موسى إلى بني إسرائيل قالوا: يا موسى صف لنا كلام الرحمن، فقال: لا تستطيعونه، ألم تروا إلى أصوات الصواعق التي تقبل في أحلى حلاوة سمعتموه فذاك قريب منه وليس به. وفيه عن ابن عباس عن النبي ﷺ: أن الله تبارك وتعالى ناجى موسى ﷺ بمائة ألف وأربعين ألف كلمة في ثلاثة أيام فلما سمع موسى كلام آدميين مقتهم لما وقع في مسامعه من كلام الرب ﷻ فكان فيما ناجاه أن قال: يا موسى أنه لم يتصنع المتصنعون بمثل الزهد في الدنيا ولم يتقرب إلى المتقربون بمثل الورع عما حرمت عليهم ولم يتعبد المتعبدون بمثل البكاء من خشيتي فقال موسى: يا رب ويا إله البرية كلها ويا مالك يوم الدين ويا ذا الجلال والإكرام ماذا أعددت لهم وماذا جزيتهم؟ قال: أما الزاهدون في الدنيا فإني أبيعهم جنتي حتى يتبوءوا فيما حيث شأؤوا، وأما الورعون عما حرمت عليهم فإذا كان يوم القيامة لم يبق عبد إلا ناقشته الحساب وفتشت عما في يديه إلا الورعون فإني أستحيهم وأجلهم وأكرمهم وأدخلهم الجنة بغير حساب. وأما الباكون من خشيتي فأولئك لهم الرفيق الأعلى لا يشاركون فيه أحد.

ذلك، ومهما كانت المواعدة لهم أجمع ولكن سماع كلام الله يختصه قضية اختصاصه بالرسالة فلذلك ﴿وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ دون «كلمهم».

أترى موسى الرسول ﷺ على محتده المعرفي الرسولي بربه يسأله أن يريه نفسه لينظر إليه نظر البصر؟ وذلك طلب الجهلة السفهاء الظلمة من قومه: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ نُنظَرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ (١) - ﴿وَإِخَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَإِنِّي لَأَتْلُوكُنَّ بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنِّي إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيْنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ حَيُّ الْغَفِيرِينَ﴾ (٢) - ﴿فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ...﴾ (٣) و﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَكُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ (٤).

أترى العتو الكبير، والسفاهة المغلظة التي تتطلب الصاعقة بظلمهم هي جامعة بين موسى الرسول وسفهاء ظالمين من قومه؟ فماذا يبقى بعد لهذه الرسالة السفهية الظالمة المستكبرة العاتية عتواً كبيراً، التي يبعد عنها بسطاء الموحدين! فضلاً عن عظماء النبيين!

قد يكون موسى ﷺ محملاً في ذلك السؤال من قبل قومه كما يبدو من ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ (٥) والصاعقة لم تأخذ إلا إياهم دون موسى ﷺ فلو كان هو أيضاً سائلاً كما هم لكانت الصاعقة تأخذه كما أخذتهم، وآيات البقرة والنساء والأعراف تقول:

(١) سورة البقرة، الآيتان: ٥٥، ٥٦.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٥٥.

(٣) سورة النساء، الآية: ١٥٣.

(٤) سورة الفرقان، الآية: ٢١.

(٥) سورة البقرة، الآية: ٥٥.